رابعة العدوية

بحث تحليلي فلسفي تاريخي

للأستاذ مصطفى بك عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية

(صورة فريدة للأستاذ بالزى الافرنجى لم تنشر قط)

الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق، على رأس طائفة العلماء الممتازين، الذين جمعوا الى دراسة القديم وروعته، الالمام بالجديد ونضرته. وهو واسع الاطلاع لدرجة تذهل محدثه. فقل أن يفوته شيء من مؤلفات الشرق أو الغرب، وبخاصة ما كان متصلا منها بالفلسفة الاسلامية. وهو لهذا يعد بحق أعرف الناس بها.

وما أظن أنى تشرفت بزيارته مرة ما: الا وجدته بين تلال من الكتب، يعمل فيها بحثا وتنقيبا، حتى يظفر منها ببغيته، فيصيح في أعماق نفسه صيحة أرشميدس الذى قال: لقد وجدتها وهو فوق هذا كله رجل جم الأدب، كريم الخلق، يكاد يسيل رقة وعذوبة، ولعل لهذه الطباع الحميدة مقرونة بمقدرته العلمية، أكبر الأثر في اجماع الناس على محبته واجلاله

وقد تفضل علينا بهذا البحث الذى يراه القراء على الصفحة التالية.

المحرر

هى رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية . ولقبها ابن خلكان بأم الخير . وذكر أنها مولاة آل عتيك . وعتيك - كأمير من الأزد . والنسبة إليه عتكى محركة وقال ماسنيون فى كتابه أصول الاصطلاحات الصوفية : وإن رابعة عتيقية لآل عتيك - بالتصغير - وهى قبيلة من قيس . ولم نر أحدا ممن ترجموا لها ذكر تاريخ ميلادها . ثم إنهم اختلفوا فى تاريخ وفاتها . فمن قائل إنها توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة . ومن قائل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة

قال الشعرانى فى الطبقات : وكانت بعد أن بلغت الثمانين سنة كأنها شن بال(١) تكاد تسقط إذا مشت . وكان كفنها لم يزل موضوعا أمامها ، وكان بموضع سجودها . وهذا يدل على أنها عاشت أكثر من ثمانين عاما . وذكر « ماسنيون » فى كتابه المشار إليه آنفا . أن رابعة قضت حياتها بالبصرة كأنها مسجونة ، وبها ماتت فى سن لا تقل عن ثمانين سنة ، وذلك فى عام ١٨٥ هـ ٨٠١ م . ولم تكن وفاتها سنة ١٣٥ هـ ٧٥٢ م كما زعموه ليجعلوا منها تلميذة للحسن البصرى . وأدلة ذلك صداقتها لرباح ، وكونها لقيت الثورى الذى جاء البصرة بعد سنة ١٥٥ . ومن الأدلة : ماروو امن خطبة محمد بن سليمان الذى ولى البصرة من قبل العباسيين منذ سنة ١٤٥ هـ الى سنة ١٧٢ هـ لها

وذكر ابن خلكان أن قبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيه . على رأس جبل يقال له الطور

لكن ياقوت الحموى ذكر أن هذا القبر ليس قبر رابعة العدوية . إنما قبرها بالبصرة ، أما القبر الذى على جبل القدس فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه على الناس

قال الغزالى فى الأحياء : ورابعة هذه تشبه فى أهل الشام رابعة العدوية بالبصرة

---

(١) الشن وبناء: القربة الخلق الصغير

لسنا نعرف شيئا عن نشأة رابعة وحياتها من قبل أن تكون صوفية . فانها لم تولد صوفية بالضرورة . ولم يعن المؤرخون إلا بالجانب الصوفى منها ، وجاء فى دائرة المعارف للبستانى مانصه : (وفى بعض الروايات أنها تابت عن يد ذى النون المصرى . وذلك أنها كانت فى سفينة مع جماعة يشربون الخمر ، فاتفق ركوب ذى النون تلك السفينة لغرض له فى بحر النيل . فطلبت إليه رابعة على سبيل التهكم أن يسمعهم شيئا من غنائه كما أسمعوه . فأنشد :

أحسن من قينة ومزمار ... فى غسق الليل نغمة القارى
ياحسنه والجليد يسمعه ... بطيب صوت ودمعه جارى
وخده فى التراب منعفر ... وقلبه فى محبة البارى
يقول ياسيدى و يا سندى ... أشغلنى عنك ثقل أوزارى

وكانت بذلك توبة رابعة على يده)

وعقب على ذلك صاحب دائرة المعارف بقوله : (ولكن يظهر أن هذه القصة مصنوعة لبعد العهد بين ذى النون و رابعة كما يعرف من تاريخ وفاتهما)

وشواهد الوضع فى هذه القصة كثيرة . فأنا لانعرف أن رابعة العدوية زارت مصر - و إن ابتدعت لها الأساطير قبرا بقرافة الأمام يزار ويتبرك به - والشعر الذى فى الرواية فيه من الغثاثة ومن اللحن ما يقطع الصلة بينه وبين عصر رابعة العدوية . و يظهر أوضح ظهور أنه من شعر العصور المتأخرة

هذا . وقد ذكر ماسنيون فى مجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ التصوف ببلاد الأسلام : (أن رابعة خطبها أبو عبيدة عبدالواحد بن زيد مع علو شأنه فهجرته أياما حتى شفع له إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : ياشهوانى . أطلب شهوانية مثلك) وذكر فى كتابه فى اصطلاحات الصوفية أن والى البصرة خطبها . وما أظن أن والى البصرة أو عبد الواحد بن زيد كان يرضى أن يخطب امرأة كانت تشرب الخمر فى السفن النيلية ، وتغنى للندمان . وليس فيما بين أيدينا من المراجع مايدل على أن رابعة العدوية كانت متزوجة . بل المأخوذ من الروايات عن حياتها

أنها كانت بعبادتها وحبها لله فى شغل عن الزوج والولد . وقد ردت مرتين من خطبها . وفى مجموع الأستاذ « ماسنيون » وفى غيره : (نظرت رابعة الى رباح وهو يقبل صبيا من أهله و يضمه إليه . فقالت : أتحبه ؟ قال نعم . قالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعا فارغا لمحبة غيره تبارك اسمه ، قال فصرخ رباح وسقط مغشيا عليه ، ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول (رحمة منه تعالى بكم ألقاها فى قلوب العباد للأطفال)

وليس من شأن زوجة أو والدة مهما بلغ بها التصوف أن تنكر الحنو على الأطفال

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى أخريات هذا القرن ، كما ترجمه أكثر من كتبوا سيرتها

ويقول ابن خلكان عنها : « كانت من أعيان عصرها . وأخبارها فى الصلاح مشهورة » ويقول عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان » الإمام أبو محمد عبد الله بن أسد اليافعى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (السيدة الولية ذات المقامات العلية والأحوال الشخصية)

ويقول عنها الأستاذ « ماسنيون » وعن رابعة القيسية ما تعريبه (هاتان الزاهدتان ، وكلتاهما من أهل المذهب البصرى) كان تحمسهما لحياة الزهد مؤديا إلى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، و إلى البحث فى فروض دقيقة فى العلميات والعقائد ، ورابعة تعتبر عند الباحثين فى أمور الولاية والأولياء أعظم ولية) .

وعندى أن من التعسف أن ينسب إلي رابعة العدو ية وصاحبتها التصدى لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية

***

ولقد كان العصر الثانى الهجرى عصر نشأة التصوف ، وعصر بداية تطوره الأول ، إذ نشأ لفظ « الصوفى » عبارة عن العابد الزاهد اللابس للصوف ، ثم صار يدل مع ذلك على العناية بحال القلوب إلى جانب التمسك بالعبادات الظاهرة وتجد فى تاريخ رابعة العدوية مايدل على حرصها على التحقق بهذه المعانى . فهى

كانت تلبس الصوف . وكانت تستكثر من العبادة ، وكانت من أزهد الناس فى الدنيا روى الشعرانى : أنها كانت تردما أعطاه الناس لها وتقول : « مالى حاجة بالدنيا وذكر صاحب مرآة الجنان ، وابن خلكان عن ابن الجوزى فى كتابه « صفوة الصفوة » بأسناده متصل إلى عبدة بنت أبى شوال ـ وكانت من خيار أماء الله وكانت تخدم رابعة ـ قالت : (كانت رابعة تصلى الليل كله . فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . فكنت أسمعها تقول اذا وثبت من مرقدها ذلك ـ وهى فزعة ـ : يانفس كم تنامين وإلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور ، وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت : ياعبدة لا تؤذنى بموتى أحدا ، وكفنينى فى جبتى هذه . وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها اذا هدأت العيون ، قالت فكفنتها فى تلك الجبة وفى خمار صوف كانت تلبسه ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها ـ فى منامى ـ عليها حلة استبرق ، وخمار من سندس أخضر لم أر قط شيئا أحسن منه . فقلت : يارابعة ، مافعلت بالحلة التى كفناك فيها وخمار الصوف ؟ قالت : إنه والله نزع عنى ، وأبدلت به ماترينه على ، فطويت أكفانى وختم عليها ، ورفعت فى عليين ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة ، فقلت لها ألهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت وماهذا عند مارأيت من كرامة الله تعالى لأوليائه ؟ . . قلت فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . قالت عليك بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك)

ويدل ماذكرنا على أنها كانت تلبس الصوف وما إليه من ثياب الشعر ، وأنها كانت كثيرة العبادة منصرفة عن الدنيا

أما اهتمامها بروح العبادة ، ومايحدث فى النفس من آثارها ، فيدل عليه كثير مما روى من أقوالها . كانت تقول : استغفارنا يحتاج الى استغفار . وكانت تقول : ماظهر من أعمالى لا أعده شيئا . ومن وصاياها : « أكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ، ولعل أظهر ماتميزت به رابعة العدوية كلامها فى الحب . ويقول

« ماسنيون » إنها استعملت كلمة « الحب » فى العشق الإلهى ، معتمدة على ماورد فى القرآن . وكان من قبلها يتحرجون من كلمة الحب فى ذلك المقام

والمحبة كما فى كتاب « مدارج السالكين » هى سمة الطائفة ، وعنوان الطريقة ومعقد النسبة . يعنى سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم ، وهم الذين قعدوا على الحقائق ، وقعد من سواهم على الرسوم . وعنوان طريقتهم . أى دليلها ، والمحبة تدل على صدق الطالب وأنه من أهل الطريق . ومعقد النسبة - أى النسبة التى بين الرب وبين العبد . فأنه لا نسبة بين الله و بين العبد إلا محض العبودية من العبد والألوهية من الرب ، وليس فى العبد شىء من الألوهية ، ولا فى الرب شىء من العبودية . ومعقد نسبة العبودية هو المحبة ، فالعبودية معقودة بها بحيث متى انحلت المحبة ، انحلت العبودية ، ولاتحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لاتزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولاتوصف المحبة بوصف أظهر من المحبة . وإنما يتكلم الناس فى أسبابها ، وموجباتها ، وعلاماتها ، وشواهدها ، وثمراتها ، وأحكامها

وهذه المادة تدور فى اللغة على خمسة أشياء :

أحدها — الصفاء والبياض ، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها — حبب الأسنان

الثانى — العلو والظهور ، ومنه حبب الماء وحبابه ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ، وحبب الكأس منه

الثالث — اللزوم والثبات ، ومنه حب البعير وأحب ، إذا برك فلم يقم

الرابع — اللب ، ومنه حبة القلب للبه وداخله ، ومنه الحبة لواحدة الحبوب ، إذ هى أصل الشىء ومادته وقوامه

الخامس — الحفظ والإمساك . ومنه حب الماء للوعاء الذى يحفظ فيه ويمسكه ، وفيه معنى الثبوت أيضا . و لاريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة ، فأنها صفاء المودة ، وهيجان إرادات القلب للمحبوب ، وعلوها وظهورها منه . لتعلقها بالمحبوب المراد ، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ؛ ولزومها لزوما لايفارقه ،

ولإعطاء المحب محبوبه لبـه ، وأشرف ما عنده وهو قلبـه ، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه . فاجتمعت فيها المعانى الخمسة .

هذا مايقوله ابن قيم الجوزية فى معنى المحبة ومنزلتها من التصوف

وعند ماكان التصوف فى سذاجته لعهد رابعة . لم يكن الحديث فى أمر المحبة الصوفية طريقا معبدا . وقد تكون رابعة العدوية أول من هتف فى رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا . وجدير بمولاة آل عتيك — التى كانت من فضلاء عصرها ، وأزكاهم فطرة ، وأسماهم نفسا ، وأشدهم عزوفا عن الدنيا وزخارفها — أن يكون انقطاعها إلى الله قد وجه نفسها الشاعرة وجهة حب إلهى فغنت بأناشيده فى مثل قولها :

أحبك حبين ، حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهـــل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا ، وذاكا

روى هذا الشعر الغزالى فى الأحياء ، ونقله « ماسنيون » أيضا . والذى فى الأحياء « فكشفك لى الحجب حتى أراكا » وفى الأحياء أيضا : قال الثورى لرابعة . ماحقيقة ايمانك ؟ قالت : ماعبدته خوفا من ناره ، ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء . بل عبدته حبا له وشوقا إليه

وذكر أبو القاسم القشيرى فى الرسالة : أنها كانت تقول فى مناجاتها : إلهى أتحرق بالنار قلبا يحبك ؟ فهتف بها مرة هاتف : ماكنا نفعل هذا . فلا تظنى بنا ظن السوء

وفى « عوارف المعارف » للسهر وردى . قالت رابعـــة : كل مطيع مستأنس ، وأنشدت :

إنى جعلتـك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفـــؤاد أنيسى

وكانت تنشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هـذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

ومن الظواهر التى تسترعى النظر فى حياة رابعة العدوية . ماعرف من دوام حزنها وبكائها

قال الشعرانى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ، وكانت إذا سمعت ذكر النـار غشى عليها زمانا ، وكان موضع سجودها كهيئة المـاء المستنقع من دموعها

وروى أنهـا كانت تقول « محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه »

قال المترجمون لها : وقال عندها يوما سفيان الثورى : واحزناه — فقالت : لا تكذب . بل قل : واقلة حزناه . لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس . وقيل لرباح : هل طالت بك الليـالى والأيام ؟ قال بم ؟ قيل بالشوق إلى لقاء الله ؛ فسكت ؛ قالت رابعة : « لـكننى نعم »

وليس هذا الحزن العميق فى نفس السيدة رابعة ، إلا مظهر ما كانت تفيض به نفسها الشاعرة من الحب العميق

فالسيدة رابعة هى السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف الأسلامى ، وهى التى تركت فى الآثار الباقية نفثات صادقة فى التعبير عن محبتها وعن حزنها ، وإن الذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر فى هذين البابين ، لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية إمام العاشقين والمحزونين فى الأسلام .

مصطفى عبد الرازق